مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 17، العدد 68 (خريف 2006)، ص 131

منى سكرية*

الضاحية الجنوبية:
الإثم الذي استولد الاسم

تتجدد الضاحية. تولد من داخلها، ومن أي طارئ يصيبها. تتوالد من روافدها الآتية من المنابع: جنوباً وبقاعاً، وقلة قليلة من هنا وهناك لحفظ التنوع.

في كل مرحلة، ولكل مرحلة: إمّا دمار وإمّا إعمار. تنطلق الضاحية من حيث هويتها، حاجياتها، بؤسها، وجهة لونها ومصيرها؟ تعجن نفسها وتأكل خبزها بمفردها، فلا تتأخر عن القيام بواجب، ولا تؤخر واجباً عليها القيام به.

لكل حالة وضعها المناسب، ولكل وضع مناسب هناك حالة "ضاحوية جنوبية".

28 من الكيلومترات المربعة هي مساحة الضاحية الجنوبية كجزء من مساحة الوطن. لكنها مساحة مملوءة بتاريخ الوطن، بأحداثه، بمحطاته، بصراعاته، وأيضاً بتاريخ وأحداث ومحطات وصراعات التداخل الإقليمي بالدولي، بدءاً من أواسط ستينيات القرن الفائت.

عفواً هذا في الحدث السياسي، لأنها بدءاً من تاريخ استقلال لبنان، وامتداد الحرمان المناطقي إلى هذه الـ 28 كيلومتراً مربعاً، صارت هذه المساحة حزاماً مزمناً.

تتكوم الضاحية على ذاتها، تتماهى فيها، وتنفصل عنها ساعة الضرورة.

في كل زاوية من زوايا أزقتها تنبت حكاية، حكاية تبدأ بعرق الجبين، وتنتهي بلون الدم، وغالباً ما تنتهي بلون الدم.

أزقة اتسعت في البدء عشوائياً "بخجل" قرب البيوت الآهلة أساساً بسكانها وقراها وبساتين ليمونها وشجر الصبير والنخيل.

خلف أزقتها ازدادت المباني، ارتفع العمران، ولا يهم عشوائياً كان أم وفق تنظيم مدني أحدث عدداً من الأوتوسترادات. المهم أنه في السياسة والاقتصاد بات يحسب للضاحية الحساب.

منذ ما بعد الاستقلال اللبناني المنجز سنة 1943، ومع تشكل الدولة ومؤسساتها، حظيت هذه البقعة الجغرافية، المتنوعة سابقاً بطوائفها، الملآنة بخيراتها، الغنية بأخضرها، بتسليط الأضواء عليها، لمعرفة كنهها، تكوينها، لونها السياسي، ليبنى على الشيء مقتضاه.

ومع أول ضربة معول في القرار الإنمائي لبناء مطار بيروت في منطقة خلدة بعد الاستقلال (1951) كان أول الحكاية.

نسجت الضاحية حكاياتها وفقاً لحكايات الوقائع السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ونُسجت حولها الحكايات، وتعددت النظرات، فرآها محبوها "نوارة"، و"شموس"، و"ربع الوطن"، و"خزان المقاومة"، و"قلعة الصمود"، و"أرض المحرومين". ورمقها كارهوها بنظرات الاستعلاء والطبقية فسمّوها "حزام البؤس"، و"الغيتو الشيعي". وتوجس منها طائفيو النظام، فتتبعوا الإحصاءات الديموغرافية، في حين نالت مؤخراً نصيبها من القرار الأميركي بوضعها على لائحة الإرهاب.

هي هي، بقراها البكر، حيث منازل قليلة قديمة لا تزال بقرميدها الأحمر وشجرات النخيل.

هي هي، بأزقتها "المستعارة" من حواكير تبغ الجنوب، ومن حرمان سهل البقاع.

هي هي، بلون ما من الحداثة، ومن النعمة المستجدة من تعب أبناء المغتربات.

هي الضاحية الجنوبية، ولا يهم بأية تسمية تنادى. لقد كرست نفسها على الخريطة، وكرستها خريطة لبنان وخرائط المنطقة على مفصل التاريخ.

أزقتها شرايين حياتها، تمتلئ بأبنائها، ويمتلئون منها بحبل سرة لا ينقطع. هم من الضاحية ومن بعلبك في آن واحد. وهم من، عيتا الشعب أيضاً.

يكفي أن تقول الضاحية من دون أية إضافات ولا حاجة إلى مزيد. فكأنما تقول بيروت بما تعني لبنان، أو باريس بما تغني عن كلمة فرنسا. ولا ضير في ذلك لأن المقصود بعينه إنما هي. وكأن لا ضواحي أُخرى للعاصمة بيروت.

أهل الضاحية، سكان الضاحية، فلماذا هذا الاختصار في التعريف؟ ولماذا هذا الامتلاء من التعريف؟

تتعدد المداخل إلى الضاحية الجنوبية، وكذلك المنافذ والمعابر. تقيم على ذاتها، وفي ذاتها. تنعقد بروابط اجتماعية، حياتية تقتضيها يوميات المكان، فتتمدد في الاتجاهات الجغرافية تحت ضغط عاتيات الزمن.

إذا أتيتها من جهة الغرب، فالممر الإجباري لبلوغها يقع بين مستشفى عكا الفلسطيني يميناً، وبقعة مجازر صبرا وشاتيلا يساراً. هي إذاً على تخوم القضية الفلسطينية.

وإذا أكملت الطريق، فالممر من تحت جسر المطار، وشواهد مجزرة استنكار "اتفاق أوسلو" قابعة في جنباته. تدخلها، فتدخل عيتا الشعب وبوابة فاطمة.

وإذا أتيت الضاحية من الطرف الجنوبي، فالممر الإجباري لدخولها هو حزام البؤس في منطقة حي السلم وجواره.

ومن شمالها وشرقها يكمن التحدي اليومي في مد الوحدة الوطنية والعيش المشترك وجزرهما.

إنها الضاحية الجنوبية للعاصمة بيروت. لكنها هي الجنوب، المقيم والنازح والمغترب والعائد والمنتشر على الدروب، الصامد فيها إلى أن تحين العودة، والملتجئ إليها إلى حين العودة المعاكسة. المهجّر منها وإليها. المهجّر منه ومنها في الحرب الأخيرة.

يقول المعلق في إحدى "الكليبات المصورة" التي تبثها قناة "المنار": "إنها الضاحية، اسمنا ورسمنا وعزمنا ومجدنا. هنا الضاحية عاصمة الكبرياء، وبلاط الشهداء."

فمن أين لها كل ما صارت إليه، وصار لها، وصار فيها، وصيرته مراراً؟

لم يبدأ تاريخ الضاحية في 14 تموز/يوليو من السنة الجارية، يوم أصاب صاروخان أطلقتهما المقاومة الإسلامية البارجة الحربية الإسرائيلية فاشتعلت في المياه الإقليمية اللبنانية. ويومها اشتعلت الضاحية بالمفرقعات النارية ابتهاجاً. ويومها بدأت الضاحية تشتعل بنيران الطائرات الحربية الإسرائيلية، فخرج الناس من أهلها، لأنها باتت في مرمى النار المباشر.

نبذة تاريخية

قبل الدخول فيما آلت الضاحية إليه ميدانياً جراء حرب الثلاثة والثلاثين يوماً، وتداعيات ذلك في الدمار الناجم، والعمل الجاري لإرجاع صورتها وسط "كشح" الغبار الهائل الذي حوّلها بحق إلى ضاحية الضباب، لا بد من نبذة تعرض لهذه الضاحية التي كانت واحدة من سلسلة ضواح تحيط بالعاصمة، ثم انفردت عنها لتصبح الضاحية الجنوبية.

* * *

يعرِّف جبران مسعود في قاموسه "الرائد" كلمة الضاحية بقوله: الضاحية من ضواح — الضاحي: أي الناحية الظاهرة خارج البلد، الناحية الظاهرة من كل شيء، مثلاً فعل ذلك ضاحية أي علناً.

يضيف: أهل الضاحية: أهل البادية — أرض ضاحيةُ الظلال: لا شجر فيها يستظل به.

ما علاقة هذا التعريف بما هو عليه الواقع الجغرافي والسكاني للضاحية الجنوبية؟

يقول الدكتور أسعد الأتات في كتابه عن الضاحية الجنوبية، والمنشور عنه في صحيفة "السفير" اللبنانية (1983/7/4) ما يلي: "إن أهل الضاحية الأصليين كانوا يحتاجون إلى عشر دقائق للانتقال من منزل إلى منزل في الحي نفسه، فالمنازل محاطة بالجنائن والبساتين والصبير والبلح والنعناع والبقدونس والبندورة والباذنجان، لكن طوفان البشر الوافد من الأرياف والآتي مع الحروب حل في كل زاوية، وفي كل بقعة يمكن استخدامها. ارتبط نمو الضاحية بنمو بيروت. ومع بدايات القرن العشرين أصاب بيروت تطور كبير مع حلول الانتداب الفرنسي إثر هزيمة الإمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وعليه فقد أقام الفرنسيون كل مرتكزات البنية التحتية للعاصمة من سكك حديد إلى المرفأ، إلى بناء الإدارات وأجهزتها. بدءاً من هذه المرحلة أصبحت بيروت تلعب دوراً اقتصادياً وثقافياً وسياسياً مركزياً. ومع مطلع عهد الاستقلال سارت الأمور باتجاه آخر. فقد توسعت العاصمة وحدثت عملية انتقال إلى الضواحي ومن ضمنها الضاحية الجنوبية. وبدأت هجرة الريف بسبب انهيار صناعة الحرير. وفي هذه الفترة أنشئ مطار بيروت في منطقة خلدة، وقامت مصانع في الشياح وكفر شيما والحدث (ضواح شمالية للعاصمة). وفي الخمسينيات وبداية الستينيات عرف الاقتصاد اللبناني نمواً كبيراً مما أدى إلى هجرة كثيفة من الريف حيث تراجعت الزراعة. وهكذا تحولت الضواحي خلال نصف قرن من ضيع صغيرة إلى حاضرات يقطنها مئات الألوف من البشر. إلى أن اندلعت الحرب الأهلية."

اندلعت الحرب وبدأت أوسع عملية فرز طائفي – سكاني، عنوانها "التهجير" في الوطن، والهجرة إلى خارجه. وفي حرب ما سمي "حرب السنتين" (1975 – 1976)، التحق كل لبناني بطائفته، ومعقله الآمن، عشيرته الأولى، ومسكنه "النهائي"، فتحولت الضاحية الجنوبية إلى "معقل للشيعة"، وخرج منها اللون المسيحي إلى مناطقه. وتداخلت عمليات "التطهير" الطائفي باحتلال المنازل، بالبناء على أملاك الغير، ليحل بالمجتمع اللبناني ما عرف بقضية "المهجّرين" التي لمّا انتهت تداعياتها بعد. "التهجير" كلمة بدأ تداولها مع تهجير سكان النبعة وتل الزعتر والكرنتينا، إلخ. وتتالت فصولاً بحق الآخرين، وفي أكثر من منطقة. كأنه التاريخ الذي لا يعيد نفسه إلاّ في لبنان. وللضاحية الجنوبية الحصة الأبرز.

تطرقت الدكتورة ماري ناصيف الدبس، عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي، في حديثها معنا إلى الصورة الاجتماعية والاقتصادية التي حكمت واقع الضواحي المحيطة بالعاصمة: "كانت تمتد من عين الرمانة إلى الحدث، وكانت مختلطة طائفياً، وتتضمن تشكيلتها الاجتماعية عدداً كبيراً من العمال والمستخدمين، وصغار الكسبة، وبورجوازية صغيرة. وكان فيها عدد من المعامل الكبرى. وكانت هذه المنطقة تضم فقراء الجنوب والبقاع."

إزاء هذا الواقع الاجتماعي، تقول الدبس، برز دور الحزب الشيوعي الذي أطلق على الضاحية الجنوبية تسمية "حزام البؤس". غير أن الحضور الشيوعي لم يترسخ كثيراً في الضاحية الجنوبية "التي اكتسبت هذا الاسم بفعل الحرب الأهلية"، إذ إن صعود تيار الإمام موسى الصدر وما أوجده لاحقاً باسم حركة المحرومين "أمل" ازداد نفوذاً، ومن ثم تنازعاً مع الشيوعيين، ومن ثم إنهاءً لوجودهم.

لا تستغرب الدبس أن يطلق على الضاحية الجنوبية تسمية "خزان المقاومة"، وتتحدث عن شهداء الحزب الشيوعي "منذ تأليف الحرس الشعبي سنة 1969، ثم قوات الأنصار سنة 1970 لمواجهة الاعتداءات الإسرائيلية، وإلى اليوم حيث سقط لنا شهداء في الحرب الأخيرة، مروراً بكل ما شهده لبنان من مقاومة ضد إسرائيل."

اللون اليساري الذي أضفاه الحزب الشيوعي ومنظمة العمل الشيوعي والنضال الفلسطيني المسلح على منطقة الضاحية اختفى مع اشتداد الفرز الطائفي في أثناء الحرب الأهلية، ومع تطورات سياسية إقليمية فرضت نفسها.

هناك ما يشبه الإجماع على أن الضاحية الجنوبية تشكلت بفعل الاعتداءات الإسرائيلية أولاً، وما سببته من هجرات متتالية، وأيضاً نتيجة الوضع الاقتصادي المتردي في المناطق اللبنانية الريفية، الأمر الذي دفع الباحثين عن الرزق إلى التمركز في العاصمة ومحيطها. لكن المؤرخ الدكتور أحمد بيضون يشدد على أن العامل الإسرائيلي "كان الأكثر تدميراً، وهو الذي أدخل جنوب الجنوب في دائرة الخطر منذ منتصف الستينيات من القرن الماضي."

ويرى بيضون أيضاً أن تسميتها "الضاحية الجنوبية" إنما جاءت بفعل التوسع الصاعق، والخراب الذي حل بالضاحية الشمالية نتيجة الحرب في إثر سقوط تل الزعتر والنبعة. ومع ذلك، يضيف، اتخذت أجزاء من الضاحية بعد الحرب شكلاً عمرانياً أرفع من الضاحية الشمالية، وشذ عن ذلك حي السلم والعمروسية اللذان ولدا في الحرب.

إلى الأسباب الاقتصادية في هجرة الريف إلى ضواحي المدن، وإلى الحرب التي أفرزت ضواحيها وضحاياها، يضيف الدكتور بيضون "انتشار التعليم كقيمة اجتماعية"، وهو ما كانت تفتقده مناطق الجنوب والبقاع، وأيضاً حياة المدينة وإغراءاتها بالنسبة إلى الشباب.

لكن أليس هذا الإهمال المناطقي هو الذي أدى إلى ولادة هذه الضواحي، وهنا تقع المسؤولية أولاً على الدولة؟ أوليس هذا الإثم من جملة الآثام التي أدت إلى ولادة هذا الاسم؟

يحاول بيضون أن يكون منصفاً: "يجب أن نرى حدود مسؤولية الدولة في هذا الأمر. فالدولة وفرت الكهرباء، وجرّت المياه إلى المنازل، وعبّدت الطرقات، لكنها لم توفر فرص العمل، ومن الطبيعي، إضافة إلى أسباب أُخرى، أن تتحول الضاحية إلى مصب للنزوح الشيعي، وتدفق رؤوس الأموال الشيعية، علاوة على الأموال السياسية، التي تتجسد حالياً بحزب الله ومؤسساته، وبمؤسسات المرجعيات الدينية، ومنها تلك التابعة للسيد محمد حسين فضل الله."

إذاً، عوامل كثيرة نقلت البندقية الحمراء من يد الحزب الشيوعي إلى مرحلة جديدة من التاريخ السياسي للضاحية. ماذا يقول في ذلك النائب عن حركة "أمل" في البرلمان اللبناني أيوب حميّد: إن الفرز الطائفي هو إحدى حلقات الاحتراب الداخلي في إطار السيناريو الذي لا يزال مرسوماً للبنان. إن تقليص نفوذ الدولة جراء أعوام الحرب الأهلية، أدى إلى اتساع نفوذ الآخرين، ومنهم أهل الضاحية الجنوبية. فالدولة لم تكن متمثلة إلاّ في المخفر شكلاً، في حين غابت سلطتها في فرض القانون والنظام العام، الأمر الذي أدى إلى الفوضى المنظمة في البناء العشوائي، والمخالفات. أمّا المناخات الخاصة التي حكمت شكل الضاحية فتعود إلى "كونها جزءاً من هذا المناخ الوطني – الإسلامي – العربي، مع اندماج بالمخيمات الفلسطينية مثل برج البراجنة وشاتيلا." ويعرض حميّد لصورتها

السياسية – الميدانية مستذكراً حيث كانت مزيجاً من "تداخلات عديدة بدءاً من عناصر جيش التحرير الفلسطيني على خطوط التماس بين الشياح وعين الرمانة، إلى تدخلات عربية ترجمت بصراعات أجهزة مخابراتها، إلى تدفق أموال السياسة العربية التي كنست كل شيء ورمته علينا للاستغناء عن فلسطين."

بل يذهب حميّد، في وصف واقع الضاحية يومذاك، إلى ما هو أبعد من الصراعات الإقليمية التي انعكست في الضاحية الجنوبية، ليقول "إن الحرب الباردة كانت على تخومها وبين ظهرانيها."

يوم بدأت الضاحية الجنوبية تتلمس لونها السياسي في مطلع عهد الاستقلال، ارتبطت مباشرة بالواقع المحيط بها، فكان نائباً منها في البرلمان محمود عمار، وكان في الوقت نفسه نائباً لرئيس حزب الوطنيين الأحرار الرئيس كميل شمعون، لتستقر اليوم، بعد مخاضات متتالية كانت تشهدها في كل مرحلة، على انتخاب ابن شقيق محمود عمار، النائب الحالي علي عمار عن حزب الله في البرلمان.

قبل ذلك كانت السيطرة لحركة "أمل" التي ورثت السيطرة الفلسطينية واليسارية في الضاحية. إن وجود حركة "أمل" في الضاحية وتعاظم نفوذ الإمام موسى الصدر، الرافض أصلاً للحرب الأهلية، لم يمنعا تمدد الحرب إلى أحياء الضاحية وعلى خطوط تماسها، بل على العكس، هدأت على خطوط التماس فانصرف المتقاتلون إلى العراك بين الأحياء ومقابر الأموات. وكرّت سبحة التقاتل والتصفيات، والاحتلال المتبادل للمكاتب وبالقوة المسلحة، إلى أن سيطرت حركة "أمل"، ولا سيما بعد انكفاء الحضور الفلسطيني عقب اجتياح سنة 1982، لتدخل بعدها الحركة في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي. وأطلقت مجموعة منها على نفسها تسمية "المقاومة المؤمنة"، ليحدث فيما بعد طلاق بين الحركة وهذه المقاومة. في النصف الأول من الثمانينيات بدأت حركة "أمل" صراعاً مع الرئيس الأسبق أمين الجميل، وحصلت انتفاضات مسلحة، منها حركة شباط/فبراير 1984، تلاها ما عرف بحرب المخيمات الفلسطينية مع حركة "أمل". وفي هذه الأثناء كان صعود حزب الله يتزايد، فدخلت الحركة مجدداً في صراع مسلح مع حزب الله انتهى إلى خروجها من الضاحية إلى منطقة الشياح المجاورة. وأخذ التحول السياسي يدخل في مندرج جديد عنوانه: حزب الله، ومضمونه "حضن المقاومة".

إن حزب الله في الضاحية وحيد السيطرة كحزب سياسي، وله مؤسساته الكثيرة. فهل أن الضاحية الجنوبية كتجمع بشري هي التي تعطي الحدث السياسي لونه، أم أن الحدث السياسي هو الذي يفرض نفسه على انتماء الضاحية؟

يجيب الأستاذ في علم الاجتماع الدكتور طلال عتريسي بالقول إن الضاحية لم تكن لتنال شهرتها لولا الوجود الكثيف لحزب الله ومؤسساته. وإن صعود الحزب كحركة مقاومة ناجحة ضد العدو الإسرائيلي هو الذي جعل الضاحية، التي تحمي الحزب، مكاناً استثنائياً يختلف عن أمكنة كثيرة في لبنان. وعلى الرغم من الانسجام الديني والمذهبي لسكان الضاحية، وهذا أمر مهم يساعد في جمع الحشود الضخمة، فإن هذا الانسجام ليس العامل الموحد، بل هو مساعد، لأن المعيار الأساسي هو وجود حزب الله وتأييد السكان له. وإذا قابلنا ذلك بتجمعات مشابهة تعيش الانسجام المذهبي والطائفي نفسه في مناطق لبنانية أُخرى، نلاحظ أن تلك التجمعات لا تصنع الحدث السياسي لأنها تفتقر إلى التنظيم، أو إلى الحزب الذي يحولها من كتلة بشرية في منطقة جغرافية إلى حيوية سياسية تتفاعل مع الحدث، أو تشارك في صنعه.

ويشير عتريسي إلى عوامل عديدة تفاعلت فيما بينها وأعطت الضاحية الجنوبية، بالتدريج، وخلال مرحلة الثمانينيات هويتها الجديدة، فنشأت فيها المؤسسات الاجتماعية والتعليمية والمراكز الأمنية والمنتديات السياسية، الأمر الذي جعلها حضناً للمقاومة، وحصناً يحميها ويبايعها في كثير من المناسبات. وتحدث الدكتور عتريسي عما يتوقعه من مستقبل سياسي للضاحية بعد 12 تموز/يوليو 2006: "إن الضاحية لا تحتاج إلى الكثير من الوقت لكي تستعيد ما كانت عليه قبل الحرب." ربما رمى بجوابه إلى عودة الهدوء والإعمار، لأن الدكتور أحمد بيضون أشار في إجابته عن هذا السؤال إلى ما هو متعلق بالأوضاع الإقليمية، "فاللون السياسي لها يتوقف على تطورات الوضع الإيراني."

* * *

يعتقد السيد جعفر محمد حسين فضل الله، ذو العمامة السوداء، الحائز إجازة في تدريس مادة الدين، وشهادة في علم الاجتماع من الجامعة اللبنانية، أن الإنسان يألف التجانس، من دون أي انغلاق لهذا الإطار المذهبي الموجود في الضاحية. فالانفتاح داخل الدائرة الإسمية وخارجها جلي وواضح.

جعفر الذي ولد في محلة النبعة المجاورة لأحياء الأرمن المسيحيين، نزح جراء الحرب إلى حارة حريك، أي إلى جوار عائلات مسيحية. "كنا نتعامل معهم بكل احترام متبادل. وعندما أغلقت الشوارع المحيطة بمنزل الوالد لأسباب أمنية صودف وجود منازل لمسيحيين داخل هذا السياج، وهؤلاء ما لبثوا أن تركوا بيوتهم بإرادتهم احتراماً للظروف المستجدة."

بخلاف النظرة السياسية، ينظر السيد جعفر إلى الضاحية من زاوية اجتماعية؛ فهي "عبارة عن تجمع من طبقات اجتماعية متعددة بدءاً من بيت المرجع الديني إلى بيت قائد المقاومة إلى بيت العامل والتاجر وأصحاب المؤسسات الكبيرة، إلى المستثمر فالمغترب فالبائع المتجول. وهذا المزيج الاجتماعي عكس نوعاً من الامتزاج الشعوري بين هذه الطبقات فإذ بها طبقات من دون طبقية، الأمر الذي ساهم في تعزيز الأبواب المفتوحة لدى المرجع والقيادي."

ويأبى السيد جعفر أن تكون الضاحية وليدة أوضاع محددة؛ فالإنسان لا يلعب به عامل واحد. ففي ظل المعركة الأخيرة نرى أن الالتفاف غير العادي حول المقاومة هو أحد العوامل، كون المقاومة وقادتها جزءاً من هذا الشعب، وكون الحالة الامتزاجية الإنسانية موجودة وحاضنة.

لماذا أفضت إلى اللون المذهبي الواحد؟ نسأل ويجيب: إن الطائفة الشيعية تمتلك على المستوى السياسي والديني نوعاً من الواقعية والمرونة والبراغماتية، كما أن هذا المزيج الديني – الاجتماعي لم يشكل حالة انغلاق. أمّا حالات التطرف المذهبي فهي موجودة في جميع مراحل التاريخ، وهي هنا محددة. وقد ساهم المرجع السيد فضل الله، ومثله السيد موسى الصدر، على المستوى العقائدي، في تربية أجيال بعيدة عن لغة الانغلاق. فالحالات المتطرفة على المستوى الطقوسي بقيت في أحياء قليلة.

في أي حال، إن هذا التجمع السكاني المتجانس لم يكن متجانساً على مستوى الالتزام بالفرائض. فزائر الضاحية في إمكانه مشاهدة المرأة التي ترتدي التشادور الأسود وبجانبها المرأة التي ترتدي آخر صيحات الموضة، المحتشم منها والسافر. لذلك لا يمكن اعتبار الضاحية الجنوبية نموذجاً لجمهورية إسلامية مصغرة، وإن كان العديد من المؤسسات التربوية والاجتماعية والاقتصادية تابعاً لإطار حزبي معين.

ما هي هذه المؤسسات؟

في اليوم الثالث لحرب الـ 33 يوماً، ركز العدو الإسرائيلي قصفه على منطقة الضاحية الجنوبية، ومهد له بإلقاء المناشير التي تطلب من السكان الابتعاد عن مراكز حزب الله، مع العلم بأن مدارج مطار بيروت الدولي المجاور لم تكن لتضم مكتباً واحداً لحزب الله. ومع ذلك تعرضت لقصف الطيران الحربي، الذي أحدث أضراراً فيها فتم إغلاقها جراء ذلك. وهكذا حال الجسور والبنى التحتية في لبنان كله. وبعد المناشير أخذت الصواريخ، التي لم نسمع بمثلها من قبل، على عاتقها تدمير الجسور المؤدية إلى مداخل الضاحية مثل جسر المطار عند مستديرة شاتيلا – الضاحية، وعند تقاطع كنيسة مار مخايل – جسر صفير، الذي يربط بلدة الحدث بالمطار مروراً بأوتوستراد السيد هادي نصر الله الذي تعرض للقصف أيضاً.

تم إخلاء المنطقة من ساكنيها في ثالث أيام العدوان، إذ لا ملاجئ لحماية الناس، وإن وجدت فهي عبارة عن مواقف للسيارات تحت الأرض أو مشاغل حرفية مسكونة بالرطوبة.

تحولت الضاحية إلى هدف ثابت لمرمى نيران الطائرات الإسرائيلية، وأصيب مبنى إذاعة "النور" بأضرار طفيفة، ثم ما لبث أن حوله القصف إلى ركام. وهذا ما حل بمبنى تلفزيون "المنار" فمحيط مجلس الشورى ومبنى المكتب السياسي، إلخ. إنه المربع الأمني الذي لم يُبقِ منه الحقد الإسرائيلي إلاّ ركام الذكريات. وتكرر القصف من البوارج ومن الطائرات، ولم يسلم مسكن أو طبقة في محلتي حارة حريك وبئر العبد. وحدها شجرة النخيل بقيت شاهدة على ركام منزل العلامة السيد محمد حسين فضل الله، الذي تحوطه منازل مسؤولين كثر في حزب الله وفي حركة "حماس"، وفي جواره أيضاً تقع مبان لمؤسسات ثقافية وتعليمية وتربوية وصيدليات ورياض أطفال ودور نشر وأندية رياضية ومقاه للإنترنت وتعاونيات تجارية ومحلات ملابس ومستشفيي بهمن والساحل، ومبان لسكن الفتيات الآتيات من المناطق تتبع جمعية التكافل الاجتماعي. وهذه كلها دمرت بالكامل، من دون أن ننسى الدمار الذي أصاب المؤسسات التربوية المعروفة باسم المبرات الخيرية التابعة للمرجع الديني السيد محمد حسين فضل الله، وتضم مدارس للأيتام والمعوقين.

لقد فلحت صواريخ الطائرات الأرض، وتراكم الركام بعضه فوق بعض، وتناثر غباره إلى حدود السماء ليعود مطراً مبللاً بالأوحال.

مليون ونصف مليون متر مكعب بلغ حجم الردم الناتج من الأبنية المدمرة في منطقة المربع الأمني وجوارها في الضاحية الجنوبية، نقلتها عشرات الشاحنات بما لا يقل عن خمسمئة نقلة يومياً وعلى مدار شهرين كاملين، فأوقعت الحيرة والدهشة حتى لدى متتبعي إزالة آثار إعصار كاترينا في ولاية نيو أورليانز في الولايات المتحدة الأميركية.

كأنها عصا "مايسترو" تلك التي أومأت إلى أهالي الضاحية بأن يخلوا الأمكنة، فأخلوها من دون ضجيج، ليعودوا إليها بإيماءة انتهاء العدوان الإسرائيلي. وفي أثناء العدوان لم تفرغ الضاحية من بعض أهلها. هؤلاء رفضوا المغادرة وتحدوا الموت الذي طالما أتاهم في مرات سابقة ولم يفعل.

كثر من المتطوعين، تجاوز عددهم الآلاف، أنجزوا ما عليهم من واجب إنساني وعملوا على تأمين المواد الغذائية، ونقلوا الجرحى، ودفنوا الموتى، ورفعوا الأنقاض حتى في أثناء القصف، وأمنوا صهاريج المياه، وردموا حفراً كبيرة، وفككوا بمساعدة الجيش قنابل لم تنفجر، وأدوا الأمانات إلى أصحابها ولم تحدث سرقة واحدة.

لم تصمت إذاعة "النور"، ولا إذاعة "صوت البشائر"، ولم تطفئ قناة "المنار" شاشتها، بل "طبقنا خطة بديلة عبر البث البديل"، هذا ما قاله مدير العلاقات العامة في محطة "المنار"، إبراهيم فرحات، الذي أكد "أن المبنى أزيل بكامله بعد سبع غارات طيران، ولم يبق إلاّ الفريق العامل في الأخبار، وقد أصيبت لنا ست محطات إرسال في مختلف المناطق اللبنانية. وفي الأثر جاءتنا عروض من محطات زميلة خارج لبنان للانتقال والبث من هناك، لكننا رفضنا شاكرين. كنا نملك أحدث التجهيزات في الشرق الأوسط، وخسائرنا الأولية ما بين 12 و15 مليون دولار، وإن كانت خسارتنا الأكبر هي الأرشيف الخاص."

قبل الحرب لم يكن هناك من ساعة محددة لظاهرة الاحتشاد السكاني في شوارع الضاحية، فالاكتظاظ على مدار الساعة، والليل مثل النهار. إنها مالئة الدنيا وشاغلة عواصم القرار الكبرى، وربيبتها تل أبيب.

إنها الضاحية. عاد الأهل، وعادت إليهم الأزقة المروية بالذكريات والخبريات. وعاد الضجيج الكامن في الإرادة. تغيرت ملامح الأمكنة، وتبدلت العناوين. اتسعت المساحات. وأمام مبنى ما كان يعرف بـ "المنار" صورتان كبيرتان: واحدة "للقائد (العربي) الكبير هوغو تشافيز"، وثانية لقائد المقاومة السيد حسن نصر الله.

بعد السادسة مساء تصمت الجرافات. تصمت كما الليل الأسود البلاأنوار في تلك البقعة. موحشة منطقة المربع الأمني ليلاً، تدل على أقصى الحقد والفشل الإسرائيليين. المباني المجاورة للمربع إمّا في مستوى الأرض، وإمّا في قيد الهدم، وإمّا فاغرة النوافذ، متراكمة السقوف لتبدو كأنها سقف واحد.

لا يمكن أن تستدل على ما كنت تعرفه من أماكن إلاّ بالاستدارة إلى حيث دخلت. هنا كان نادي السلطان الرياضي، وبجانبه صالة للشيعة الشيرازيين، وهم من أهل العراق ولهم طقوسهم الخاصة والمنغلقة، وقريباً منها مركز الوحدة الإعلامية، إلخ.

وسط حر آب/أغسطس ولهيب شمسه، اعتمر المتطوعون الشباب الخوذات الواقية من الحرارة ليأخذوا "شقلة" عن معتمري القبعات الواقية من الرصاص.

تزامن ذلك قبيل حلول شهر رمضان، المبارك بالنصر هذه السنة، وقبل أن يدهم المطر الأعتاب، واحتراماً لبدء العام الدراسي. إنه انتصار آخر.

تجوّلْ في أحياء الضاحية التي صارت مفتوحة على ممرات الهواء بأسرع مما كانت عليه من قبل. عليك أن تضع الكمامة على الأنف اتقاء للغبار. فعمليات فصل الباطون عن الحديد دونها صعوبات، والأصعب فصل هذا الدمار عن الذاكرة.

رئيس بلدية الغبيرة، محمد سعيد الخنسا، قال لنا إن ما يقارب الثلاثمئة مبنى في قيد الهدم، ومعها ستتغير معالم عمرانية كثيرة.

يوضح الخنسا أن 98٪ من الأبنية تملك التراخيص القانونية، وبالتالي لا بناء على أملاك الغير. ويتابع قائلاً إن الألم كان يعتصر قلبه في الحروب السابقة أمام المباني التي كانت تنهار، أمّا الآن فقد اختلفت المشاعر، إذ طال التدمير الإسرائيلي منذ اليوم الأول منزلي السيد محمد حسين فضل الله والسيد حسن نصر الله، ومقر الأمانة العامة للحزب، الأمر الذي عمل على تأجيج المشاعر، والمزيد من التحدي. كانت الناس تسأل، في خضم هذا الدمار، عن أخبار المقاومة، فتحقيق النصر يبقي الرؤوس شامخة فوق الأنقاض.

ثمانية معاهد لتدريس الكومبيوتر من مجموع 25 معهداً دمرت بالكامل، في حين أن إحدى عشرة مدرسة تعاني التدمير الجزئي، وهو "ما سيعوق مواكبة العام الدراسي، فضلاً عن مسألة تغيير السكن لدى كثير من الناس." في

الضاحية 32 مدرسة ابتدائية ومتوسطة رسمية "تعمل بدوامين"، وثلاث مدارس للتعليم الثانوي للصبيان، واثنتان للبنات. أمّا المدارس الخاصة فتتجاوز مئة مدرسة لكل مراحل التعليم، منها المجاني ونصف المجاني والمرتفعة الأقساط. وهناك مدارس للتمريض، ومعاهد مهنية ذات مستوى جامعي، وفرع لجامعة "آزاد" الإيرانية. وعلى تخوم الضاحية يرتفع صرح الجامعة اللبنانية في ضاحية الحدث. ويتجاوز عدد أبناء الضاحية من المنتسبين إلى مراحل تلقي العلم مئة ألف تلميذ وطالب.

التطوع

أثارت مسألة التطوع دهشة المتابعين. تجدها في شباب التعبئة التربوية الذين عملوا على "إزالة الركام، وتخمين الأضرار، وتأمين المساعدات والمدارس البديلة." وتجدها في الهيئة الصحية الإسلامية التي واكبت عدداً من الحروب، "وكنا نشبه توم آند جيري في تحركنا وفي علاقتنا بالقصف الإسرائيلي، لكن هذه المرة كان الأقسى." هذا ما يقوله معاون المدير العام للهيئة، حسن عمار، الذي أخبرنا عن "استشهاد 6 متطوعين من الهيئة وتدمير 5 سيارات إسعاف، وتدمير مبنى دار الحوراء الطبي الذي كان يمتلك أحدث التجهيزات."

أمّا مؤسسة "جهاد البناء" فيكفي أن تعود إلى بدايات عملها الذي دشنته برفع أنقاض الدمار الذي حل بالمنازل التي تضررت جراء محاولة اغتيال العلامة السيد محمد حسين فضل الله في محلة بئر العبد سنة 1984 بتفجير سيارة مفخخة، ليستتبع ذلك جهداً ما فتئت المؤسسة تقوم به، مروراً بجميع الحروب التي مرت على لبنان. "وقد عملنا على رفع الأنقاض تحت القصف" – يقول مدير المؤسسة، قاسم عليق، ويضيف أن "25.000 وحدة سكنية دمرت جزئياً، و185 مبنى تحت المراقبة، و215 وحدة سكنية مدمرة بالكامل، في حين أن الفرق التقنية التابعة لنا تقوم بتدعيم المباني المهددة قبل حلول الشتاء."

لم يدخل الرعب قلوب المتطوعين. هذا ما يجمع عليه جميع من شارك في هذه العملية الإنقاذية الإنسانية الطابع، والجهادية المضمون. وترجمة لذلك نصبت خيمة المتطوعين في قلب ما يعرف بالمربع الأمني. وكان إلى جانبها، على مسافات منها، خيم أُخرى للغاية عينها. ستة آلاف شاب تطوعوا للمساعدة بشكل يومي. نقلوا أغراضاً لمن يريد. شاركوا في تنظيف المنازل – الفتيات منهم فعلن ذلك. كانوا من مناطق متعددة ومذاهب مختلفة، مسيحية وإسلامية. كنسوا الطرقات. أقاموا مرسماً لتخليد الدمار وهمجية العدو. أكثر من مئتي رسام لبناني وعربي حلوا ضيوفاً في الخيمة. واحدة من تلك اللوحات عبارة عن مرآة كبيرة الحجم مرسوم عليها خريطة لبنان وفي وسطها كلام يفيد "أنك بتشوف حالك فيه." تحولت الخيمة إلى محجة مفتوحة للقاصي والداني ممن يريد تأكيد جهاده "بالأموال أو بالمساعدات العينية أو الزيارات لتوجيه الرسائل"، فتجاوز عدد الوفود الزائرة خلال أقل من شهر مئتي وفد أبرزها الأمين العام للأمم المتحدة، كوفي أنان، وأمير دولة قطر، والمناضل الفلسطيني عزمي بشارة، والقس الأميركي جيسي جاكسون، إضافة إلى تنوع غير مسبوق من الشخصيات السياسية والحزبية والثقافية، ومن جميع الجنسيات.

مشاريع ذات طابع فني أقيمت، ولم يكن مألوفاً ذلك من قبل، سواء الفرق الموسيقية، أو الأمسيات الشعرية أو المسرحية.

هناك كثير في الذاكرة عن الفترة التي تلت الهدوء، وعن التعاطف اللامحدود الذي أراد كل على طريقته التعبير عنه، لكن "خبريات" عديدة لا يمكن للمسؤول الإعلامي في حزب الله، غسان درويش، أن ينساها، ومنها تلك المرأة الأردنية التي أتت وزوجها وابنتها من الأردن لتزور المربع الأمني وهي تبكي لتنهي جولتها التي دامت يوماً واحداً بالتبرع بخاتم زواجها "لأنني لا أملك سواه." أو أولئك الأولاد من أعمار العاشرة وما دون أو أكثر، "الذين كنا نرجوهم الابتعاد، لأنهم كانوا يودون الدخول مع الفرق الإعلامية التي كنا ننظم دخولها خلال القصف إلى المربع الأمني ثلاث مرات في اليوم"، يقول درويش.

إنها الحرب التي عرفت الرقم الأعلى والأكثر في عدد العاملين في وسائل الإعلام ممن تابعوها، "إذ يزيد أو ما يقارب الستمئة إعلامي" كانوا مرصودين لتغطيتها.

تغيرات كثيرة طرأت على منطقة المربع الأمني، وسيطرأ عليها لاحقاً ما يتعلق بكيفية إعادة بنائها، لكن سيتم الاحتفاظ بمبنيين سكنيين مدمرين وسط المربع شاهدين على الوحشية الإسرائيلية، وسيتحولان إلى ما يشبه المتحف – الجريمة، كما سيتم نقل بعض الأحجار لإقامة نصب تذكاري.

قبل انتهاء الفترة التي قيل إنها ستكون ثلاثة أشهر ليتم خلالها إزالة أنقاض الدمار الذي حل بالضاحية، انتهى رفع الأنقاض بشهرين. وهذا الإنجاز احتاج إلى قيام 95 ورشة عمل في الوقت نفسه، وتحرك 600 آلية من جميع الأنواع، ومئة ألف نقلة من الشاحنات تولت خلال شهر واحد نقل الدمار إلى أربعة أماكن حددت لهذه الغاية.

أية ضاحية هي اليوم؟

تسأل بائع أشرطة التسجيل في محلات بنت الهدى في محلة بئر العبد فيقول أنه باع "52 ألف شريط مسجل خلال أقل من شهر لنشيد "نصرك هز الدني، ومين قدك لمّا تطل." وتلحظ ذلك في عودة المرضى إلى مستشفيات بهمن والساحل والرسول الأعظم التي أغلقها القصف. فعودة المرضى تعني عودة الحياة. إنها في الدمار الذي لم تره الزميلة سلوى فاضل: "لأنني رأيت ذاكرتي فيه." وقد اشتاقت أكثر إلى الازدحام وشعرت بالحنين إلى النفايات، "فهي دليل على وجود الحياة."

إنها الصور — الأرشيف الذي أصرت المحامية مريم شعيب على تسجيله: "كنت أعود تحت القصف لأصور بالكاميرا ما سيمحوه الإعمار لاحقاً." إنها "دفتر قصائدي التي كتبت على فترات، وألبوم صور العائلة، وأشرطة بصوت المرحوم والدي الشاعر أحمد شعيب."

الضاحية — الشهيدة — الشاهدة، هكذا يراها الزميل قاسم قصير، ولهذا لن يراها إلاّ من خلال صورتين: ما كانته، وما حل بها من دمار. "لهذا يتملكني شعور أنني فقدت عزيزاً"، يقول. إنها ليست مجرد أبنية، إنها الرابط بين الأشياء الصغيرة والذاكرة.

زائر الضاحية المدمرة لا يشعر بما أحسه شاعرنا العربي في الجاهلية أمام أطلاله "في ذكرى حبيب ومنزل". إنها أعز من هذا الشعور. شعور فيه تناقضات شتى: "شعور الفخر في مقابل شعور الألم"، هذا ما قاله لنا عضو المكتب السياسي لحزب الله، غالب أبو زينب. إنه أيضاً شعور التضامن بين المقاومة والناس، على الرغم من الرهانات الكثيرة على تحطيم هذه العلاقة. إن إعمار الضاحية سيكون أفضل، وسيكون ذا بعد إضافي للانتصار، وسيكون أكثر ترتيباً وتنظيماً، ورمزاً للانتصار في مربعه الأمني.

هل هو الصمود أم العطاء الذي يعطي الإنسان هذا التحدي كله؟ من أين للطفل أحمد، ابن الثمانية أعوام، أن يقرر كما قال لزميله أنه يريد تغيير تسريحة شعره بجعلها إلى الخلف "لأنني شاهدت أولمرت على شاشة التلفاز وتسريحة شعره إلى اليمين"! قال ذلك وكان القصف ينهمر على منطقة المربع الأمني.

يستذكر النائب أيوب حميّد أنه عندما كان عضواً في اللجنة الأمنية التي تألفت في الحرب لحل المشكلات بين "البيروتين" الشرقية والغربية، أن هدوءاً ملحوظاً كان سائداً في أحد الأيام، وإذ بالاتصالات تنهمر لضبط الوضع المتفجر على محور "حي الأميركان"، الفاصل بين الضاحية الجنوبية والمنطقة الشرقية لجهة غاليري سمعان. وبعد التقصي والاستفسار علمت اللجنة أن مجموعة من المقاتلين من الضاحية رفعت العلم الإيراني، فاحتج المقاتلون من الجهة المقابلة ورفعوا العلم الإسرائيلي. لقد جرت هذه الواقعة في أواسط ثمانينيات القرن الماضي القريب، القريب جداً.■

(*) صحافية لبنانية.